أ.قرل عبد المالك

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم العلوم الإسلامية

– جامعة تلمسان –

الدراسات القرآنية وأثرها في مذاهب البلاغيين القدماء

ملخص :

يهدف هذا البحث إلي تبيان الدراسات القرآنية والبحوث البلاغية التي ألفت بغزارة منذ نهاية القرن الثاني هجري في كتب تناولت القرآن و ما فيه من معان و مجاز ونظم و إعجاز ، و أمدتها بفيض زاخر من الملاحظات البيانية.

تمهيد:

فالوقوف على إعجاز القرآن ، و إدراك نظمه و إجتلاء أسراره لا يقوم إلا على تفهم البلاغة و معرفة الفصاحة ، و بهذا يصبح جليا أن المفسرين و أصحاب الدراسات القرآنية كان لهم نصيب كبير في نشأة البلاغة و العمل على تطويرها ، بما قدموه من أبحاث بلاغية للتوصل بها إلى حقيقة الإعجاز ، من هذه الإلمامة الخاطفة ، نجد طوائف متعددة من لغويين و متكلمين و أدباء و نقاد و مفسرين تظاهرت جميعا على إبراز ملاحظات بلاغية مفيدة ، ووضع إجابة واضحة المعالم عن الفصاحة و البلاغة و البيان و الأسلوب و الإعجاز ، و كان نتيجة لهذه البيئات المختلفة و تلك الطوائف المتعددة أن بلورت البلاغة في اتجاهات مختلفة و نشأت عنها مذاهب متعددة منها :

1. مذهب المتكلمين:

قام المعتزلة في مطالع القرن الثاني للهجرة عندما بدأت الأفكار الجديدة تتسلل إلى العقول ، و أقبل الناس على الدين الجديد يدرسونه و ينظرون إليه على ضوء تراثهم القديم من ديانات و فلسفات و عقائد ، فنشأت جماعة من علماء مسلمين تسلحوا بمناهج عقلية و عرفوا بقوة البيان و حسن الرأي و قوة الحجة و على رأسهم المعتزلةو كبيرهم **واصل بن عطاء** المتوفى (سنة **131** هـ) صاحب بيان رائع و قدم راسخة في البلاغة ، و كان يدافع عن القرآن دفاعا منهجيا عقليا خلطه بالفلسفة و خلف واصل في تفسير القرآن على مذهبه كتابا سماه " معاني القرآن ".[1]

و على منهج **واصل بن عطاء** سار صاحبه **عمرو بن عبيد** المتوفى (سنة **144** هـ) و كان رجلا صالحا زاهدا و يأتي من بعدهما **النظّام** المتوفى سنة (**220** هـ) الذي درس الاعتزال و اتصل بالثقافة الهندية و اليونانية و تعلّم المسيحية و لاهوتيتها و كان لا يميل في علمه إلى التجربة و القياس ، كما ألم بالثقافة العربية فحفظ القرآن ونظر فيه و في تفسيره على ضوء مذهبه التجريبي القياسي ، أما نظرته في بيان القرآن بوجه عام فقد اختلف عن نظرة كثير من أصحابه من المعتزلة فهو يرى أن القرآن في نظمه و تأليفه خارج عن الإعجاز.[2]

ويعتبر **بِشر بن المعتمر** المتوفى سنة(**210** هـ) من متكلمي المعتزلة و هو مؤسس فرع الاعتزال في بغداد ، اتصل بالفضل بن يحي البرمكي و كان مقربا إليه و هو شخصية قوية كانت له صحيفة عرفت باسمه تعرّض فيها لقضايا أساسية في البلاغة ، أوردها الجاحظ في كتابه" البيان و التبيين ".

فظهور المتكلمين بفرقهم المختلفة و ما ثار بينهم من جدل حول كثير من القضايا الإسلامية ، كلها متصل بالعقيدة بصورة خاصة ، فاعتمدوا على استخدام الألفاظ بطرق تخدم غايته في الإقناع و المجادلة ، فكان لهؤلاء أكبر الأثر في بلورة المفاهيم البلاغية الأولى ، و كان القرآن مرجعهم الأول يستمدّون منه الأدلة و أدى هذا الجدل بهم إلى التفنن اللفظي و البحث في القضايا البلاغية.[3]

هذه الطائفة تسلّحت بالفلسفة و المنطق ، لتناضل بهما عن الدين الإسلامي و لكن الفلسفة و المنطق قد انعكس أثرهما على كل ما يتناولونه ، فإذا عرضوا لأمور أدبية فنية ، كأن ينظروا في أي القرآن مثلا ، لا يستطيعون أن يخلصوا أنفسهم من النظرة العقلية ، حيث يجب النظر الأدبي و يقيسون بمقياس الصحة و الخطأ و الخير و الشر ، بدلا من قياسهم بمقياس الجمال و القبح الذي يجب أن يعتب وحدة مقياس الأدب و الفن.[4]

و نستطيع أن نلخص طريقتهم في البحث عن طريق استعمال الفلسفة المنطقية في تحديد الموضوعات و تقسيمها و الاستعانة بالألفاظ و المصطلحات الفلسفية و المنطقية في تناول الموضوعات البلاغية ، وبذلك بعدت أشواطا عن مرمى البلاغة و أهدافها التي تغرس في المتعلم الإحساس الفني ، كما عمدت هذه المدرسة إلى التقليل من الشواهد و الأمثلة و الآيات القرآنية ، و شاعت هذه المدرسة في المناطق الشرقية من الدولة الإسلامية ، حيث يكثر خليط من الفرس و الترك و التّتر.[5]

و لابد لمن يستعرض تاريخ دراسات البلاغة العربية الوقوف عند أعلامها الأفذاذ و على رأسهم **الجاحظ المتوفى سنة (255 هـ)** الذي تتلمذ في اللغة و الأدب على أبي عبيدة و الأصمعي و أبي زيد الأنصاري وفي النحو على الأخفش و في علم الكلام على أبي إسحاق إبراهيم بن سيّار البلخي المعروف بالنظّام زعيم المعتزلة

ببغداد و اتصل بالثقافة اليونانية عن طريق علماء الكلام ، و مشافهته لبعض مترجميها من أمثال حنين بن إسحاق كما أخذ الثقافة الفارسية عن طريق كتب بن المقفع و توسع في الثقافات كلها بما يقرأ من الكتب التي تصل إلى يديه.[6]

و رأى الجاحظ أن بيان القرآن و نظمه و تأليفه يحتاج إلى كتاب مستقل يودع فيه رأيه في إعجاز القرآن من هذه الناحية فألف كتاب "نظم القرآن " و كتاب " البيان و التبيين " و أثبته آراءه في بيان القرآن بشكل يوضح الحج في إعجازه و لا شك أنه قد كان لآراء الجاحظ في هذين الكتابين أثرهما في توضيح الدراسات الأدبية و النقدية بعد ذلك[7] و قام الجدل و احتدم الخصام حول بيان القرآن من زاوية المجاز بين المعتزلة و أهل السنة و يمثل الفريق الأول في هذا العصر الجاحظ و يمثل الفريق الثاني **ابن قتيبة المتوفى سنة (286 هـ)** و خرج الجدل من القرآن إلى الأدب العربي بشعره و نثره و تناول أساليب الكلام و فنون التعبير المختلفة.[8]

2. مذهب اللغويين و النحـــاة:

مما لا شك فيه أن البلاغة قد أفادت من الدراسات اللغوية أيما فائدة سواء من حيث حروفها أو في الكلمات مجتمعة من حيث تعادلها في الخفة أو الثقل ، وجاء دور علماء اللغة اللذين لهم أثر في مدّ تيار البلاغة بينابيع من دراستهم في اللغة و بحثهم في الألفاظ ، و بيان ما يعتريها من فصاحة أو ابتذال مما أفاد الدراسات البلاغية ، ومعنى هذا أن ممن شاركوا مشاركة فعالة في بناء البلاغة طوائف اللغويين و النحاة و الرواة ، فهؤلاء كانوا من أكبر العاملين في ميدان البلاغة العربية و من أولئك العلماء:

سيبويه المتوفى سنة (170 هـ): في مؤلفه " الكتاب " يعرض في كتابه القضايا البلاغية منها الحذف الذي يدخل في فن البلاغة مثل التخفيف و الإيجاز و السعة و تناول أيضا التقديم و التأخير في صدر كتابه ، و لم يقتصر على ذكر أنواع البيان و المعاني بل تجاوز ذلك إلى بعض ألوان البديع في عرف المتأخرين و أول هذه الألوان تأكيد المدح بما يشبه الذم.

أبو عبيدة عمر بن المثنى التيمي المتوفى سنة (209 هـ): في كتابه " مجاز القرآن " و قد سار أبو عبيدة في معالجة مجاز القرآن على ترتيب السور و لكن لم يستقص ما اشتملت عليه كل سورة من مجاز و إنما نراه يورد الاستعمالات الغريبة فيها أي أنه ركز على غريب القرآن أو مجاز القرآن بمعنى الأشياء الغريبة التي خرجت من مألوف الاستعمال ، ولكنه أظهر بعض المظاهر البلاغية كالإطناب بزيادة الحروف للتأكيد و الإجمال ، و التقديم و التأخير ، و كاستعمال الكناية استعمال اللغويين و النحاة بمعنى الضمير.[9]

الفرّاء يحي بن زياد المتوفى سنة (207 هـ): في كتابه " معاني القرآن "الذي يعتبر دراسة مكملة لكتاب مجاز القرآن لأنه يبحث في التراكيب و الإعراب ، و المجاز و الغريب و كلتا الدراستين متعلقتين بالأسلوب ، وقد ألّف هذا الكتاب حوالي سنة 204 هـ. الذي تناول فيه قضايا بلاغية منها الكناية و المجاز بمعناه اللغوي و الاستعارة و حتى النظم.

ابن قتيبة محمد بن مسلم المتوفى سنة (286 هـ) في كتابه " مشكل القرآن " ، كانت ثقافته العربية تقوم على القرآن الكريم و الحديث و اللغة و النحو و الأدب شعره و نثره ، وتخرج من هذا على أئمة عصره و من أساتذته الأصمعي أبي حاتم ، أبو عبيدة ، ابن الأعرابي ، أبو عمر الشيباني و أبو زيد ، و امتزجت ثقافته العربية بالثقافات الأخرى يونانية و فارسية و هندية في ذهنه ، كما كان علما من أعلام السنّة و إماما من

أئمتهم بل هو لأهل السنّة بمنزلة الجاحظ للمعتزلة يتحدث بلسانهم كما كان الجاحظ يتحدث بلسان المعتزلة.[10]

و قد تناول ابن قتيبة مسائل بلاغية في صدر كتابه " مشكل القرآن " يخبرنا أن القرآن نزل بلغة العرب ، و المجازات في الكلام و معناها ، طرق القول و مآخذه ، التقديم و التأخير و الحذف و التكرار و الإظهار و التعريض و الإفصاح..... إلخ.

فهؤلاء العلماء الذين سبق ذكرهم نجد نحاة كثر ألفوا في البلاغة أو فيما يتصل بها فمنهم:

- **الفضل الضبي المتوفى سنة(168 هـ)** له كتاب " معاني القرآن " و كتاب " الألفاظ ".
- **يونس بن حبيب المتوفى سنة(183 هـ)** له كتاب " معاني القرآن " .
- **مؤرج السدوسي المتوفى سنة(195 هـ)** له كتاب " غريب القرآن " .
- **الكسائي علي بن حمزة المتوفى سنة (197 هـ)** له كتاب " معاني القرآن " .
- **قطرب المتوفى سنة (206 هـ)** له كتاب " معاني القرآن " .
- **الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة المتوفى سنة(221 هـ)** له كتاب " تفسير معاني القرآن".

- **أبو عبيدة القاسم عبد السلام المتوفى سنة(224 هـ)** له كتاب "معاني القرآن"و" غريب القرآن" .

هؤلاء العلماء النحاة الذين ظهر معظمهم في العصر العباسي الأول لم يحصروا نشاطهم العلمي في مجال النحو و إنما نراهم يتجاوزنه إلى مجالات أخرى متصلة بالأدب و البلاغة.[11]

3. مذهب الفقهـــــاء:

كان للفقهاء المفسرين أثر في البلاغة ، فقد اعتمدوا في استنباط الأحكام الدينية و أصول التشريع الإسلامي على نصوص من الكتاب و السنّة ، وهذا بدوره أدى بهم إلى النظر في أساليب القرآن البيانية و التأمل في ألفاظه و دلالاتها و في طرائق التعبير و مراميها .

و كان **الإمام الشافعي محمد بن إدريس المتوفى سنة (304 هـ)** أول من كتب أصول الفقه و له في كتاب " الأم " الذي استهله بمقدمة ذكر فيها حقيقة البيان العربي ، و قسّمه إلى بيان القرآن و بيان السنّة و البيان بالرأي. ثم جاء الفقهاء من بعده فتوسعوا في البحوث اللفظية و اعتبروا الإلمام بعلوم البلاغة مع سائر العلوم العربية من الأدوات المعينة لهم على الاضطلاع ببحوثهم الفقهية و الأصولية.[12]

4. مذهب علمـــاء الإعجـــــاز:

إن الدراسات البلاغية المتعلقة بالقرآن قد انطلقت من فكرة إعجاز القرآن و لا يعرف بالضبط متى بدأ البحث في هذا الموضوع ، قد يكون بدأ في القرن الثاني هجري و هو العصر الذي بدأ فيه المفسرون الأولون يدونون ما انتهى إليهم من تفسير عن طريق الرواية الشفوية.

و في بداية القرن الثالث هجري احتدم الجدال حول مسألة وجوه إعجاز القرآن و أول ما فتح الباب هو قول المعتزلة بفريضة الصرفة أي أن إعجاز القرآن لا يكمن في التعبير في ذاته و إنما في أشياء أخرى و أشهر من قال بهذه الفكرة **النظّام المتوفى سنة (220 هـ)**.[13]

و لقد كان الإعجاز خليقا أن يثير في الحياة الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية يتصدى بها العلماء للكشف على وجوهه القرآنية ، وعن أسلوب القرآن الفذ في التصوير و التعبير ، و بذل أولئك العلماء جهودا مشكورة و قاموا بمحاولات مضيئة لإبراز البلاغة القرآنية و عملت فيها و أضافت إليها ثم بنت عليها ، فأقامت علوما و أخرجت أخرى إلى الحياة فبدأت في الدراسات القرآنية دراسات الإعجاز و علومه ، و

أفردت كتب خاصة مستقلة بها ، تبحث عن التفسير و قام علماء أجلاء بوضع قواعد و أصول لتوضيح الجوانب البلاغية في أسلوب القرآن و تبرز الفرق بينه و بين أساليب العرب و فنون قولهم.[14]

و لعل **الجاحظ المتوفى سنة (255 هـ)** كما سبق ، كان أول من تكلم على بعض المباحث المتعلقة بالإعجاز في كتابه " نظم القرآن " و تطرق فيه إلى الإيجاز و الحذف و بين الزوائد و الفضول و الاستعارات ، و ألّف في الإعجاز ابن الأخشيد و أبو علي الحسن بن علي بن نصر ثم جاء **الواسطي المتوفى سنة (203 هـ)** الذي لا يبعد أن يكـــون قد استفاد من كتاب الجاحظ و بنى عليه حينما صنف كتابه " إعجاز

القرآن " و قد عاصر قطرب و اهتم به عبد القادر الجرجاني بالشرح مرتين نظرا لأهميته ثم يأتي بعد **الواسطي الرماني المتوفى سنة (374 هـ)** بكتابه " في الإعجاز " و لم يصدر عنه رأي مبتكر حيث تدرج في كتابه من قضية الإعجاز عامة إلى الإعجاز البلاغي خاصة و يليه **محمد بن إبراهيم الخطابي المتوفى سنة (377 هـ)** في كتابه " بيان إعجاز القرآن " و كتابه هذا مشهور بين كتب الإعجاز لأنه يمثل رأي أهل الحديث في الإعجاز كما مثل الرماني رأي المعتزلة و كما مثل الباقلاني رأي الأشعرية.[15]

ثم يضع **القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة (403 هـ)** كتابه " إعجاز القرآن " الذي جمع فيه كثير من المباحث البلاغية القرآنية و لكنه على سعته و شموليته لا يصور إلا الفكرة السائدة عن الإعجاز في عصره ، ممزوجة بالمسائل الكلامية الكثيرة.[16]

و يأتي على رأسهم **الإمام عبد القادر الجرجاني المتوفى سنة(471 هـ)** الذي يعتبر فتحا جديدا و مرحلة جديدة هامة في تاريخ الدراسات البلاغية في كتابيه " دلائل الإعجاز في المعاني " و " أسرار البلاغة " الذي عمل على هدم النظريتين السائدتين آنذاك ، نظرية القائلين بأن بلاغة الكلام في اللفظ و نظرية القائلين بأن البلاغة في المعنى ليقيم على أنقاضها صرح نظرية جديدة و هي نظرية النظم.[17]

و هكذا نستطيع أن نتبين بوضوح مدى ما أثارته قضية الإعجاز القرآني من آراء بلاغية ، و كتب صُنِّفت لبيان وجوه الإعجاز ، و اعتمدت أساسا على علوم البلاغة من معان و بيان و بديع ، فكانت هذه الكتب ، و في أول أمرها سبيلا إلى نشأة البلاغة ثم تطورت بها حتى استقرت في النهاية بوضع قواعدها و قوانينها و معظم

الكتب البلاغية المعتمدة ، من تراثنا الإسلامي و العربي، نجدها تعرض للإعجاز ، إما عن طريق مباشر أو من خلال الحديث عن الفصاحة و البلاغة فكل ما ذكرناه في هذا البحث من مؤلفات تحمل اسم القرآن و إعجازه عنوانا لها ، و في الوقت نفسه تتحدث عن البلاغة إجمالا و تفصيلا ، نقدا أو تحليلا ، و لم تترك قضية بلاغية إلا و عرضت لها أو ذكرت فيها رأيا ، و إن كان عرضها الأول و هدفها الأوضح هو الوصول بنا إلى معرفة إعجاز القرآن .

أما الكتب البلاغية التي تحمل كلمة القرآن أو إعجازه عنوانا لها . مثل : كتاب الصناعتين أو سر الفصاحة أو العمدة ، فإنها لم تخل من إشارات إلى إعجاز القرآن ، و صلته بعلوم البلاغة من معان و بيان ، فكان الإهتمام بقضية الإعجاز القرآني هو السبيل إلى نشأة البلاغة و تطورها و نضجها.

5. مذهب الأدباء:

ابن المعتز المتوفى سنة(296 هـ) في كتابه " البديع" حيث يضم ألوان البلاغة المختلفة ، لم يفرد له كتاب قائم بذاته قبل كتاب ابن المعتز و إنما كانت أبواب البديع موزّعة ، منثورة في كتاب السابقين مثل ابن قتيبة و المبرد و الجاحظ و لم يجمعهما كتاب واحد .

أبو هلال العسكري المتوفى سنة(395 هـ) في كتابه " الصناعتين " أي الكتابة و الشعر ، استعان في تأليفه بكل ما سبقه في الكتابة عن هذا الموضوع ، من أمثال ابن سلام ، و الجاحظ و ابن قتيبة ، و ابن معتز ، وقدامة ، و الآمدي ، و القاضي الجرجاني ، استعان بهؤلاء جميعا ثم قدم لنا خلاصة يمكننا القول أنها تبسط الكتب التي ألّفت في هذا الفن من قبل .

ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة (466 هـ) في كتابه " سر الفصاحة " و يوضح فيه أن معرفة الفصاحة تنعكس على العلوم الشرعية ، لأن فصاحة القرآن معجـزة ، فالدواعي إلى معرفة الفصاحة قوية و الحـاجة إليها ماسة و شديدة

و بيّن أحكام الأصوات و التنبيه على حقيقتها ، ومخارج الحروف ، وما ينتظم منها و ما يستكره ، و الألفاظ المستعملة و المهملة ثم ينتقل إلى الكلام عن الفصاحة و البلاغة.

و هناك من ألّف في وجوه بلاغية متنوعة في القرآن الكريم مثل التأليف في أمثال القرآن حيث ألّف فيه **القواريري أبو القاسم المتوفى سنة (379 هـ)** و **ابن نفطويه ، إبراهيم بن محمد المتوفى سنة (323 هـ)** ، و **عبد الله الخطيب الإسكافي المتوفى سنة(371 هـ)** ثم **النيسابوري عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة (412 هـ)** و **أبو الحسن الماروردي المتوفى سنة (450 هـ)** و **البغدادي المتوفى سنة (475 هـ)** .....و غيرهم.[18]

و مجمل القول ، فقد ساهم في نشأة البلاغة أئمة و علماء من اختصاصات و مذاهب و ثقافات مختلفة ، من متكلمين و فقهاء ، ومفسرين و لغويين لأن علوم القرآن بصفة عامة و علوم العربية بصفة خاصة لم تكن قد استقلت عن بعضها استقلالا تاما ، و كان القرآن هو المثل الجامع الذي تصدر عنه الآراء ، و إليه تسمو الهمم .

المراجع والمصادر:

[1] ــ محمد زغلول سلام ، أثر القرآن في تطور النقد العربي ، مكتبة الشباب ط1 ، 1989 ، ص 68 .

2ــ عبد العزيز عتيق ، في تاريخ البلاغة العربية ، دار النهضة العربة ، بيروت ، لبنان ، 1970 م ، ص 24 .

3ــ عبد القادر حسين ، المختصر في تاريخ البلاغة العربية ، دار الشروق ، بيروت ، ط 1 ، سنة 1402 هـ ، 1982 م ، ص 12.

4ــ المرجع نفسه ، ص 13 .

5ــ المرجع نفسه ، ص 13 .

6ــ عبد العزيز عتيق ، في تاريخ البلاغة العربية ، ص 52 .

7ــ محمد زغلول سلام ، أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص 73 .

8ــالرجع نفسه ، ص 74 .

9ــ عبد العزيز عتيق ، في تاريخ البلاغة العربية ، ص 37 .

10 ــ عبد القادر حسين ، المختصر في تاريخ البلاغة العربية ، ص 28 .

11ــ عبد العزيز عتيق ، في تاريخ البلاغة العربية ، ص 43 .

12ــالمرجع نفسه ، ص 32 – 33 .

13ــ أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، مكتبة النهضة العربية المصرية ، ط 3 ، ج 3 ، ص 125 .

14ـ محمد زغلول سلام ، أثر القرآن في تطور النقد العربي ، ص 229 .

15ــ المرجع نفسه ، ص 255 .

16ــ صبحي صالح ، مباحث في علوم القرآن ، دار الملايين ، بيروت ، ط8 ، 1989 ، ص 316 .

17ــ أحمد شامية ، خصائص العربية و الإعجاز القرآني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1995 م ، ص 117 .

18ــ الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق يوسف المرعشلي ، دار المعارف ، بيروت ، ط2 ، 1994، ص 42 .